



العبود

العدد ٦ مجلد ١ شعاع الحكمة بحمدنا إليك فبراير ١٩٢٨

ادراك الروح

عن انشاعر الفيلسوف الآلمى

رابندراناث طاغور

لقد رأينا من قبل أن آمال أهل الهند القديمة قد أتحصرت في أن يعيشوا ويتحركوا ويمجدلوا في براهمنا ، الذى هو الروح الكلى الادراك ، الموجود فى كل مكان ، وذلك بأن يوسعوا من افق ادراكهم ليشمل العالم كله . ولكن قد يقال بان هذه مهمة الحصول على غايتها وتعذر المنال مستحيل التنفيذ . فاذا كان شمول هذا الادراك عبارة عن طريقة تنفذ فى الخارج ، فهناك تكون بلا نهاية : وما مثلها الا كمثل من يريد أن يعبر المحيط الاوسع فيعمد الى ماء ينزحه ليتركه يبسا . وقد يقال ان الانسان اذا بدأ بأن يعمل فى سبيل أن يحقق الكل ، فلا بد من ان ينتهى من غير أن يحقق شيئا .

غير أن هذا الامر ليس فيه من البعد عن أحكام العقل بقدر ما يلوح فى

ظاهرة . فالإنسان انما يجهد نفسه كل يوم ليحمل تلك العضلة ، معضلة الاستزادة من مدى عالمه الذى يعيش فيه ، وفى حفظ موازنة تلك الأثقال التى تقع على أكتافه . أما أحماله فكثيرة . وانها متعددة ، حتى إنه ليعجز عن حملها ، ما لم يلتمس طريقة يستطيع بها أن يخفف من ثقل حماله . وكما شعر أن أثقاله عظيمة غير محمولة ، عرف أن ذلك راجع الى عجزه عن أن يقف على سر تلك الطريقة التى يستطيع أن يضع بها كل شىء فى موضعه ، وأن يوزع الاحمال على وجه التوازن والمساواة . وما أبحث وراء تلك الطريقة ، الا البحث وراء الاندماج والوحدة . وراء الالفه والاتساق . إن الشىء الذى نحاول أن نحصل عليه هو التأليف بين أجزاء الاختلاط المتنافرة التى تختص بها الاشياء الخارجية ، بفضل تعديل باطنى . على أننا لا نلبث فى درج بحثنا أن نشعر شيئاً فشيئاً بأننا من أجل أن نعتز على الواحد فلا بد من أن نحصل على الكل ، وأن فى هذا ينحصر كل ما نشد من غايات عظمى ، وفوائد جلى . وكل ما فى هذا الامر راجع الى قانون تلك الوحدة التى اذا عرفناها ، أصبحت منبع قوتنا ، وأصل عظمتنا . اما مبدؤها الحى فتلك القوة التى تتضمنها الحقيقة ، حقيقة تلك الوحدة التى تدرك الكثرة والتنويع بل وتتضمنهما . إن صور الواقع كثيرة ، ولكن الحقيقة واحدة . فإن ذكاء الحيوان يدرك أوجه الواقع ، فى حين ان العقل الانسانى فى استطاعته أن يدرك الحقيقة . فالتفاحة تسقط من الشجرة ، والمطر يقع على الارض . تلك أوجه من الواقع يمكنك أن تشحز بها ذاكرتك من غير أن تصل الى نهاية أو آخر . ولكن اذا وصلت الى معرفة قانون الجاذبية ، فإنك بمعرفة هذه الحقيقة الغائية تستغنى عن تلك الضرورة التى تدعوك الى الوقوف على اوجه الواقع . انك انما تكون قد وصلت الى حقيقة تتضمن من اوجه الواقع عدداً لا نهاية له . على ان استكشاف الانسان لمثل هذه الحقيقة لمبعث للجدل يفيض على قلبه ، وسبب للتحرر من الاوهام يتمتع به عقله . لأن مثل وجه بذاته من اوجه الواقع كمثل درب مسدود الجنبات لا يسلم الى غيره من الدروب والطرق . ولكن الحقيقة تفتح امامنا افتقاراً برأسه ، وتقودنا الى اللانهاية . وهذا هو السبب فى ان حقيقة عامة بسيطة كتلك التى استكشفها

رجل مثل داروين في عالم البيولوجيا ، لا تقف آثارها عند حد ذلك العلم وحده ، بل تكون كمصباح ينثر أنواره المضيئة المشعة الى ابعاد اقصى بكثير من الابعاد التي أشعل لاجل اضائها ، فينير كل ذلك الحيز الذي تنطوى عليه الحياة الانسانية والفكر ، ويستعل باغراض الانسان الى اطباق المثل العليا . لهذا نجد أن الحقيقة في حين أنها تتضمن أجزاء الواقع ، ليست في الوقت ذاته مجرد ايلاف بين تلك الاجزاء ، بل هي تفوق تلك الاجزاء ، متناثرة ومجتمعة ، وتشير الى حقيقة اللانهاية .

الانسان في عالم المعرفة ، كما هو في عالم الادراك تماما ، يجب عليه ان يحقق على وجه من الدقة والضبط وجود حقيقة مركزية تزوده بمدى من النظر يمتد الى اقصى الابعاد الممكنة . وهذا هو الغرض الذي ترمى اليه اليوبانيشاد اذ تقول : « اعرف ذات روحك »

أو بعبارة أخرى : حقق مبدأ الوحدة العظمى الذي هو كائن في تضاعيف كل بشر .

ان كل القواشر التي تسوقنا في سبيل الانانية ، ورغباتنا التي يتمثل فيها حب الذات ، عامتها أشياء تغشى على أبصارنا بما يمنع علينا أن نرى الروح . لان هذه الاشياء في الواقع لا تدل الا على مجال أنفسنا الضيق . أما اذا كنا شاعرين بروحنا ، فاذنا هنالك ندرك حقيقة الوجود الباطن الذي يستعل على نفوسنا ، والذي هو ذورابطة أمتن مع الكل ، وآصرة أدنى الى اللانهاية .

عند ما يبدأ الاطفال في تعلم الحروف الهجائية كل حرف منها قائم بنفسه لا يدركون شيئاً من اللفة ولا يشعرون بغبطة . لأنهم في الواقع بعيدون عن معرفة الغرض الحقيقي الذي يرمى اليه هذا الدرس . والحقيقة أن هذه الحروف اذا استرعت كل أنتباهنا ، على أنها وحدات قائمة بذاتها واشياء منفصل بعضها عن بعض ، انهكتنا وزادتنا سأمًا . على أنها تصبح زبعا للجدل لا ينضب اذا اجتمعت فكونت كلمات وجمل وحملت معان

وهكذا الحال مع روحنا ، فانها عند ما تنتزع من حيزها وتسجن بين جدران

ضيقة ، حدودها النفس الانسانية ، تقعد خطرها وعظمتها . ذلك لان ماهيتها هي الاندماج والوحدة . ان الروح انما يجد الحقيقة بان يوحد بين ذاته وبقية الاشياء ، وان يستطيع ذلك الا في حالة الفرح والافتتان . لقد اضطرب الانسان والتوى عليه الامر ، فعمش في خوف ورهبة طوال تلك العصور التي امتنع عليه خلالها ان يستكشف اتساق ، الناموس في الطبيعة . لقد ظلت الدنيا اجنبية عنه وهو أجنبي عنها حتى آخر عهده بتلك الحال . اما الناموس الذي كشف له عنه فلاسفة الاشياء ، الذي هو روح الانسان ، وبين النظمات العالمية . هذه هي رابطة الوحدة التي يتصل الانسان من طريقها بالعالم الذي يعيش فيه ، وانه يشعر بافتتان أخاذ عند ما يكشف عن هذه الرابطة ، لانه إذ ذاك يحقق وجوده مندججا في تضاعيف ما يحيط به من الاشياء

مفروض علينا ، اذا ما أردنا أن ندرك حقيقة أي شيء ، أن نعثر في ذلك الشيء على مبدأ يكون في ملكنا وحيارتنا . ولهذا نجد ان استكشافنا لذواتنا ، خارا عن حيزنا ، هو الذي يفتننا ويبعث فينا النبضة والسرور . هذه علاقة من انهم جزئية لا غير . اما علاقة الحب فكاملة . في جو الحب تنتفي الفروق . وهنالك ، في حيز الكمال ، يصل الروح الانساني الى اغراضه مستعلما على حدود النفس ، متخطيا عبر الباب الى عالم اللانهاية . إذن فالحب هو اعظم النعم التي في قدرة الانسان ان ينشدها لان من طريق الحب وحده ، يستطيع أن يدرك أنه في الحقيقة أكثر من نفسه ، وانه واحد مع الكل

مبدأ الوحدة ، الذي يحوز به الروح الانساني ، لا ينفك في حركة دائمة ونشاط مستمر ، ناسجا خيوطا من العلاقات المختلفة تصل بين أقصى الابداد وأوسع الرحاب ، من طريق الادب والفن والعلم والجماعات الانسانية والسياسة والدين . إن أعظم من أوحى اليها بشي في هذه الدنيا هم أولئك الذين اظهروا لنا المعنى الحقيقي للروح ، من طريق انكار النفس ، لاشياء الحب النوع الانساني وخيره . لقد واجهوا كل مفرع ، وحملوا كل اضطهاد وصبروا على الفاقة والذل ، وذاقوا الموت ، خدمة لتضحية الحب العام . انهم حيوا حياة الروح ، لا حياة النفس .

وبذلك دلونا على الغاية الاخيرة التي تسعى اليها الانسانية . اننا ندعوهم
« مهاتما » أى :

(الرجل ذوو الارواح الكبيرة)

قيل فى اليوبانيشاد : —

(إنك لا تحب طفلك لأنك ترغب فيه، بل إنك تحبه لأنك فى الواقع ترغب
فى روحك انت)

ومعنى هذا اننا فى كل من نحب إنما نجد أرواحنا متجلية بكل معانى التجلى
والظهور : وان الحقيقة الاخيرة التى يدور من حولها وجودنا تنحصر فى هذا
وحده . إن « البراماهما » — أى الروح الاعلى — كائن فى . كما هو كائن فى
روحى ، وإن انتنى بولدى لتحقيق على هذه الحقيقة .

إن من الحقائق العامة التى يشترك فى الاعتقاد بها كل الناس ، والتى يكون
من الغرابة أن نفكر فيها متأملين ، أن مسرات من نحب واحزانهم إنما هي مسرات
انا واحزان . ولكن ! إنها فى الواقع أكثر من هذا . لماذا ؟ لاننا بهذه الاحزان
وتلك المسرات ، قد اتسع افقنا وكبرت ذاتيتنا ، واستطعنا أن نلمس تلك
الحقيقة العظمى التى يمكن الكون كله فى تضاعيفها .

وقد يتفق كثيرا أن يصبح حبنا لاولادنا أو لأحد قريتنا أو لغيرهم من نحب
عائقا لنا عن تحقيق ذاتيتنا الروحية لا بعد من هذا . أنه مما لا مشاحة فيه أن مثل
هذا الحب يزيد من المرامي التى يرمى اليها وجداننا ، غير أنه فى الوقت ذاته يقيم
حول الوجدان حدودا تمنع عليه أنه يتخطاها الى آفاق أرحب . ومع كل هذا فلابا
أولى الخطا التى يخطوها الانسان فى هذه السبيل . على أننا لا ننسى أن تيه الروح
لا يكون الا فى هذه الخطوة ، لانها تطيرنا على الحقيقة التى تتطوى عليها طبيعة
روحنا ، وفيها نعرف أن أعظم الجذل إنما ينحصر فى أن نفقد انفسنا الشهوية وأنانيتنا ،
وفى أن نحقق بجانب هذا الفقدان ، الوحدة مع غيرنا . وهذا الحب يزودنا بقوة جديدة
ونفوذ فى البصيرة وصفاء فى العقل يصل بنا الى أبعد تلك الحدود القصية التى ندورون
حولها . ولا جرم أن الحب يعجز عن أن يزودنا بهذه الاشياء اذا فقدت تلك الحدود

درونتها ووقفت حلائلا بين روح الحب ان يمتد اقفه ويتسع مداه . هنالك تصبح صداقاتنا مجرد حوائل وموانع . وتصبح اسرنا غارقة في الانانية ساجدة في مكدرات لا يقدر الانسان أن يعيش محوطا بها ، وتصبح الام ضيقة بحال النفس غير حرة الضمير ، فتتوء بما في طبيعتها من عدوان وعسف على اكتاف غيرها من الام والسالات . ولا مثل لهذا الا مثل من يضع نوراً مشعلا في مكان محكم الغلق . فان النور يظل مضيئا ساطع اللعان حتى تجتمع من حوله الغازات فتتطفيء الشعلة . غير أن هذه الشعلة ، مع كل هذا ، تكون قد برهنت على حقيقةها قبل أن تنطفئ ، وعرفتنا كيف يكون الفرق بين جذل الحرية وبين تلك الظلمات

من مبادئ « اليوبانيشاد » أن الطريق المؤدى الى الادراك العالمى أو الادراك الآلهى ، هو طريق الادراك الروحى . فان معرفة روحنا وتحقيق وجودها بعيدا عن قواصر النفس الشهوية ، هي أولى الخطا التي نخطوها في تلك السبيل التي نحقق فيها شئنا الاخير ونحررنا الا الى . يجب أن نعرف ونوقن بكل معانى اليقين ، باننا في جوهرنا الحقيقي روح لا غير . ولن نصل الى هذا اليقين الا بأن نتسود على النفس ونستعبد بها بأن تعمق وأن نستعمل على رذائل الكبرياء والطمع والخوف ، وأن نوقن بأن الخسائر الدنيوية بما فيها الموت الطبيعى ، لن تنتقص شيئا من حقيقة الروح وعظمتها . فان الفرخ الصغير عند ما يخرج من ظلمات البيضة المستقلة الوجود ، يعرف بأن القشرة الصلبة التي كانت تغطيها لم تكن في الواقع جزء من حياة البيضة نفسها . فان هذه القشرة شئ ميت ، لا ينمو ، ولا يمكن أن يشف عن شئ من الامتداد الواقع وراءها . غير أنها على جمالها وحسن تناسبها يجب أن تكسر وتخطم وأن تقتحم أسوارها حتى يمكن الحصول على الحرية الكائنة وراءها . وهنالك يتحقق الغرض من حياة الطائر الصغير .

في اللغة السنسكريتية يسمى الطائر « المولود مرتين » وهكذا يسمى فيها الرجل الذى يظل محافظا على نظمات ضبط النفس والتأمل مدى اثني عشر عاما ، على شرط أن يصبح شاذج المطالب نقي القلب ، مستعدا لان يحمل كل مسؤوليات

الحياة في سعة من الروح بعيدة عن التأثير بالانانيات . إنه إذ ذاك يعتبر أنه « ولد مرة أخرى » خارجاً من ذلك السياج الذي كانت تحوطه به مطالب النفس العمياء الى حرية الحياة الروحية ، وأنه أصبح في صلة حيوية مع ما يحيط به من الاشياء وأنه أصبح واحداً من الكل

لقد حذرت قرأني من قبل ، كما أجزرهم الآن ، من أن يعتقدوا بفكرة أن الهند وحكماءها قد بشروا للناس بانكار الدنيا وانكار النفس ، مما لا يقود خطواتنا إلا الى عالم من السلب لا نعترف فيه الا على خلاء صرف غير متناه . ان مرماهم كان تحقيق الروح ، أو بعبارة أخرى ، حياة الدنيا بادراك الحقيقة الكاملة . لما قال المسيح عيسى بن مريم « طوبى للمتواضعين لانهم سيرثون الارض » لم يقصد الى شيء سوى هذا . إنه أعلن الحق . لان الانسان عندما يتحرر من كبرياء نفسه ، فإنه بذلك يصل الى ميراثه الانساني ، ولم يبق له من حاجة لان يقاتل في سبيل أن يحصل على مقامه الدنيوي . لان مقامه يصبح في تلك الحال مصوناً أينما حل وكان ، بما اكتسب روحه الخالد من حق ثابت . فإن كبرياء النفس انما تعطل خصائص الروح ، الذي يعمل دائماً على ان يحقق وجوده باكمال وحدته مع الدنيا ورب الدنيا

يقول بوذا في موعظته الى صاوصيها: —

« حقاً «ياسمها» انى ابغض ضروب النشاط والحركة ، ولكن تلك الضروب التى تقودنا الى الرذائل فكراً وعملاً . حقاً «ياسمها» انى أبشر بالفناء . ولكن فناء الكبرياء والشهوة والافكار السيئة والجهل . لا التسامح والعفو والحب والتصدق والحق »

إن مذهب الخلاص الذى بشر به بوذا قد انحصر في التحرر من رتبة «الافيديا» . اما «الافيديا» فذلك الجهل الذى يظلم الادراك ، ويعمد دائماً الى ان يحصره في حدود النفس الانانية . ان «الافيديا» وبالاخرى الجهل أو تحديد الادراك ، هو الذى يمزق وحدة النفس . وبذلك تصبح النفس مبعث الكبرياء ، ونبع الطمعية ، واصل القسوة ، التى هي لزام الانانية وحب الذات .

عندما ينام الإنسان فاذ ذاك يكون مأسورا في الجبال الضيق الذي تفرضه عليه حياته الطبيعية . انه يعيش . ولكنه في هذه الحالة لا يمكنه ان يدرك أوجه العلاقات المتباينة التي تربط بين حياته وبين ما يحيط به من الأشياء . ولهذا لا يستطيع ان يدرك نفسه : وكذلك الحال اذا عاش الإنسان حياة «الافيدى» فانه يكون أسير نفسه . ذلك هو الذرم الروحي ، الذي يكون فيه ادراكه غير كامل القدرة على معرفة الحقيقة العظمى التي تحيط به ومظاهرها ، وبذلك لا يكون قادرا على ادراك روحه . اما ا.ا. حاز « البوذي » أى اليمظة من نوم النفس ، واستكمال الادراك ، فانه اذ ذاك يصبح « بوذا »

التمت ذات يوم بناسكين من طائفة دينية ما في قرية بينجال . فسألتها : «اتستطيعان أن تخبراني في أى شيء تنحصر أخص مظاهر دينكما » . أما احدهما فقد ترددت برهة ثم أجابتني : «إنه ليس من الدين ان أحدد ذلك » . أما الآخر فقال «كلا . إن هذا سهل هين . اننا نعتقد أنه يجب علينا أولا أن نحرر روحنا بأرشاد معلمنا الروماني . وبعد أن نستكمل تلك المعرفة ، نستطيع أن نعرف عليه الذي هو الروح الاعلى حلا فينا » . فسألته : «ولماذا لا تبشر بهذه الحقيقة لكل من في الارض » . فقال «إن كل من يحس بالعطش لابد من أن يحضر بنفسه ليستقى من النهر » . فسألته «أوتجده الحال كما تقول ؟ هل هم قادمون ؟ » فارتسمت على أساريره ابتسامه حلوة ، ثم قال في هوادة من الاعتقاد لا يشوبها قلق ولا ضيق صدر : «يجب عليهم أن يقدروا الى النهر ، أفرادا وجماعات » .

نعم . إنه على حق . ذلك الناسك الساذج الذي يعيش في ريف بينجال . فان الإنسان على التحقيق انما يعمل جادا ليرضى ضرورات يشعر أنه أكثر احتياجا اليها من الغذاء والكساء . إنه يعمل ليجد نفسه ويعثر بها . ان تاريخ الإنسان هو بذاته تاريخ سفره الطويل الذي قضاه نمو العالم الجبول سعيا وراء تحقيق نفسه الخالدة ، أى روحه . ففي قيام الامبراطوريات وسقوطها ، وفي استجتماع الثروات الضخمة ثم انفاقها وتبديدها مع الرياح الاربعة ، وفي خلق

تلك المجموعات الكبيرة من الرموز التي تشكل أحلامه وآماله ، ثم نبذها
وتخلّصها الى الحضيض كما تحلّم الرجولة الأعيب الطفلة ، وفي اختراعه الخلف
تلك المفاتيح السحرية التي تناول بها أن يفتح الباب ليبلغ منه الى أسرار الخلوقات ،
ثم في تركه نتائج كل هذه الجهود العظيمة ليعود ثانية الى العمل منتحيا منحنى
جديدا سالكا طريقا بكارا : في جماع هذه الظواهر ، نجد أن الإنسان قد مضى
منقلا من عصر الى عصر ، ومن جيل الى جيل ، وانصب عينيه غرض واحد هو تحقيق
روحه . ذلك الروح الذي هو أعظم من كل ما في مستطاع الإنسان أن يستجمع
ويكسب ، وأضخم من كل ما في قدرته أن يتم من أعمال أو يكون من نظريات .
ذلك الروح الذي لا يبعد عن سبيله الارتقاء بموت ولا انحلال بدن .

إن الأخطاء التي وقع فيها الإنسان لم تكن في حالة من الحالات ضئيلة تافهة .
ولذا نجد أنها سدت سبيله بخرائب يصعب اجتيازها . أما آلامه فكانت طويلا
ممنمة . وما هي الا مقدمة لنتيجة ترمى الى غرض ذاهب في أعماق اللانهاية .
ولقد مضى الإنسان متتجها هذه السبيل مستقلا فيها بطرق مختلفة ، وما كانت
معادته ونظاماته الامدادية التي اقامها ليأتي اليها في كل يوم قرباناته وضحاياه .
وانها جليلة القدر ، وثقة العدد . ولا ريب في ان كل هذا يصبح لا معنى له ،
بل يكون عبئا غير محمول ، اذا كان الإنسان قد مشى في درج كل هذه الحالات
غير شاعر بما يستلزم من الجذل والافتتان المنبث من روحه الكائن بين
جوانحه ، والذي يبلو قوته القدسية بما يحمل من آلام ، ويبرهن على أن معينه
فئض غير ناضب ، بما فيه من قدرة على نكران الذات .

نعم . إن المهاجرين لتادمون زراعات ووجدانا . قادمون الى حيث يجدون
الورثة الملقاة التي يرتون بها الدنيا . إنهم يجدون عاملين على أن يوسعوا ادراكهم
وأن يرتقوا شيئا فشيئا الى الوحدة العليا ، مقربين وهنا على وهن من تلك
الحقيقة الكبرى . الحقيقة الكاملة الادراك .

إن فقر الإنسان لدفع ، بالغ أقصى حد من التزل والاسفاف . أما مطالبه
فبلا نهاية ، وانها تظل كذلك الى أن يدرك حقيقة روحه ادراكا كاملا . ومنذ

أن يبدأ جهاده العظيم ، حتى يبلغ هذه الدرجة تظل الدنيا في نظره في حالة انحلال مستمر ، أو تلوح له كخيال كائن ولا كائن . أما الرجل الذي حقق وجود روحه قد عثر على مركز محدود للكون ومن حوله يبد كل شيء آخر موضعه الحقيقي . وبهذا يستطيع أن ينعم بحياة الالفه التامة .

لقد مر على الكون عهد كانت فيه كرة الارض كتلة سديمية متباعدة الدقائق بفعل الحرارة التي تمدد الاجسام ، حيث كانت لاتزال في حالة الفرارة الاولى . ولم تكن قد استكملت شكلها وصورتها ؟ ولم يكن فيها جمال ، ولم يختلف وراء وجودها قصد . بل كان كل ما فيها حرارة وحركة . فلما أن مضت متدرجة في التشكل وتكاثفت أبخرتها فكانت كلا مستدير الشكل متحد الأجزاء بفضل تلك القوة التي رمت الى استجماع كل المواد المتنايزة تحت حكم مركز ما ، هنالك شغلت مكانها الحقيقي بين سيارات النظام الشمسي ، كزمردة جميلة بين حبات عقد من الماس . كذلك تجد الحال في الروح الانساني . فان حرارة القواسر العمياء وحركتها ، والشهوات وقوتها ، اذا احاطت بنا من كل الجوانب ، فهناك نعجز عن أن نعطي أو نربح شيئاً في الحقيقة . اما اذا عثرنا على المركز الذي ندور من حوله ممثلاً في الروح ، واستطعنا ان نحقق ذلك بضبط النفس ، وبذلك القوة التي تؤلف بين كل العناصر المتنافرة ، ونوحد بين ما تباعد منها ، فاذا ذاك تتدامج كل الآثار النفسية المتنافرة المتنايزة ، فتكون « حكمة » واذ ذاك تستكمل كل القواشر القلبية الموقوتة مثلها العليا ، فتكون « حبا » . هنالك تكشف لنا صفائر الحياة ودقائقها عن قصد غير متناهي البصور ، وتتحد افكارنا وآمالنا اتحاداً غير مفصوم الحلقات اذ تجمع بينها ألفة باطنية تامة التكوين يقول اليوبانيشاد في كثير من الثقة :

« أعرف الواحد . اعرف الروح . فان ذلك هو الجسر الذي تعبر من فوقه الى حيث تجمد الذات الباقية السرمدية »

هذه هي غاية الانسان . غاية أن يعرف « الواحد » الذي هو كائن فيه . والذي هو حقيقته وروحه . أما هذه الغاية فهي المفتاح الذي يفتح به الباب الى

حيث يلج إلى عالم الحياة الروحانية . إلى ملكوت السماوات
 أن رغبات الإنسان كثيرة وانها لتجته سعيًا وراء الصور المختلفة التي
 تتشكل فيها الدنيا . لانها هنالك تقع على عناصر حياتها ومبادئ بقائها . أما ذلك الشيء
 الذي هو « واحد » كائن فيه ، فيبحث عن الوحدة والاتصال . وحدة الحب .
 ووحدة الغايات الإرادية . أما غاية افتتان ذلك المبدأ الواحد الذي هو كائن
 في الإنسان ، فالوصول إلى الواحد اللامتناهي في وحدته السرمدية . ولهذا يقول
 اليوناني شاد : —

« الذين استقرت عقولهم وهدأت ، لا سواهم ، يستطيعون أن ينعبدوا بالافتتان
 الكامل بأن يحققوا في ذواتهم وجود « الذات » التي تعرض لانظارنا ماهية واحدة
 في اعراض مختلفة الصور كثيرة العدد »

يتخذ « الواحد » الكامن فينا من كل ما يظهر في هذه الدنيا من مختلف
 الصور خيوطا يحبك بها سلما يتخذه سبيلا إلى « الواحد » الحال في كل الاشياء .
 هذه هي طبيعته . وهذه هي غاية افتتانه . غير أنه لا محالة يعجز عن أن يجتاز هذه
 المفازة الموحشة ليصل إلى غرضه ، ما لم يكن حائزا على ضوء ذاتي يستطيع أن يرى
 من خلاله الشيء الذي هو ساع إليه . إن رؤية « الواحد الاعلى » من خلال
 الروح ، لن تأتي الا من طريق البصيرة وحدها ، وليست من قوة الاستدلال ولا
 البرهان في شيء . إن عيوننا بطبيعتها ترى الشيء في مجموعه ، لا بتمزيقه قطعاً
 وأجزاء ، بل بجمع كل الاجزاء معا فيصبح ذلك الشيء في وحدة مع أنفسنا .
 وكذلك هي الحال في البصيرة التي هي من خصائص ادراكنا الروحي ، فانما إنما
 تحقق وحدتها الصحيحة الكاملة بالاندماج في « الواحد الاعلى » .

إنه « فشفافا كزجاج » أي أنه بتنويع في الصور والقوى يلقي بمظاهره الخارجية على الطبيعة
 نوبا . أما مظاهره المستبطنة في روحنا ، فذلك الشيء الذي يوجد في الواحد ولا في غيرها .
 ولهذا نجد أن بحثنا وراء الحقيقة في عالم الطبيعة راجع إلى طرق التحايل وغيرها من
 الطرق التدرجية التي يلبجها إليها العلم . في حين أن فهمنا للحق الكامن في روحنا فجائي
 مباشر من طريق البصيرة . إننا لا نستطيع أن نصل إلى الروح الاعلى بأن نزيد تدرجا

من ، لمرماننا بأن نضيف اليها جزء بعد جزء وهنة بعد هنة ، ولو قدر لنا أن نعيش
مكبين على هذا العمل طوال الآباد . لانه واحد ، غير ممكن من أجزاء . اننا لانستطيع
أن نعرفه ونفهمه الا اذا أيقنا بأنه في الواقع صميم الفؤاد وروح الارواح . اننا نشد على
أن نباع اليها باب والافتحان المدين نشعر به ، اذا ما تمكنا من انكار انفسنا ووقفنا
أمامه وجهنا لوجه .

ان أشد الصلوات حرارة وأكثرها في يقيني صدقا ، بل انص صلاة
خرجت من قلب بشرى ، هي تلك الصلاة التي تقع في قلبها في لساننا القديم
حيث يقولون :

« أيها الواحد المتجلى بذاته تجل في رزقي »

اننا في تعاسة وشقاء لاننا غارقات نأسرنا النفس وروحياتها . تلك النفس
الضيقة الشائرة التي لا تبعث من ضوء ولا تلج الى الانبابة بابا . ان نفسنا لتظهر
عالية الصوت ، ولكن بما تبعث بين جدراننا من صخب وصياح . انها ليست ذلك
الترقيق التي تهز اوتاره فتبعث بموسيقى السرمد والابد . واليك تنهدات الجزع
ومتاعب السقطات والاختفاء . والاحزان الممضة على مائت . والاشفاق مما حوأت .
ذن كل هذه اشياء تلتقي بافتدنا في يمين من الرعب والوقوف . لاننا لم نعثر بهد على
أرواحنا ، ولان ذلك الروح الذاتي المتجلى ، لم يتجل بهد في حياتنا الباطنة .
ومن هنا اندمجت في مراتبنا تلك الصيحة القلبية التي تقول فيها :

« أيها الواحد الجليل الميب ، نجني بابتسامة غفرانك وحنانك كل
وقت وأن »

ان اشباع المذائد النفسية والشره الذي لا تمتنع نهمتا ، وكبرياء الملك والاستحجاء
وأسفاف القلب نفورا وبخافة ، كل هذه أشياء تنفي من ذرائعها أكفان الموت والنفاء
« رودرا » أيها الواحد ذو الجلال . مرق هذا الغطاء المظلم قطعا ، وأضرب
هذا الليل الخالك بشمع منبج من بساط غفرانك وايقظ روحي »

« قد خطواني من الملاحقة الى الحقيقة . ومن الظلام الى النور . ومن المرات

الى الخلود »

لكن كيف يؤمل انسان ان يحقق ما في هذه الصلاة من دعوات ؟ فإن المسافة التي تفصل بين الحق والباطل شاسعة بلا نهاية . وهي كالفراغ الواقع بين المرت والبلود . ولكن هذه الفجوة السحيقة لا ريبه تعبر في لحظة واحدة اذا شاء الواحد المتجلى بذاته ان يتجلى في قرارة الروح . اذ ذاك تقع المعجزات ، حيث هنالك يلتقي المتناهي بغير المتناهي .

« يا بـت . امح عنى كل معصية واذهب بها »

لأننا بالمعصية تنصر المتناهي على اللامتناهي اسأل فينا . إنها لازمة لتتصور فيها النفس على الروح . أن هذا لعب الخسران والمدم ، الذي يغامر الانسان فيه بالكل طمعاً في الحصول على الجزء . ان المعصية ستار للحق ، ينشئ على صفاء ادراكنا كغمامة كثيفة :

في غمر الخطيئة والمعصية تشتد شهواتنا سعياً وراء اللذائذ ، لا لأن اللذائذ ذاتها شيء مرغوب فيه ، ولكن لان قواصر الشهوة هي التي تميل اليها كذالك . ونتمتع الى حيازة الاشياء ، لا لأن الاشياء نفسها ذات قيمة حقيقية ، بل لان طمعنا يضحكها ، فتلوح لنا عظمة قيمة . ولا ريبه في أن هذه المبالغات ، تلك النظرات الملتوية التي ننظر من ناحيتها الى ما يحيط بنا من الموجودات ، تفكك روابط الذة الحياة ، وتفصم عراها في كل خطوة نخطوها . بذلك نقصد الدستور الأعلى لمعرفة التيم الحقيقية . ونأسرنا حاجات الحياة ومطالبها . وهي على تشابك حلقاتها تستعبدنا استعباداً . فإن عجز الانسان عن أن يستجمع كل عناصر طبيعته في وحدة يتحكمها « الواحد الأعلى » هو الذي يجعله يشعر بان هنالك فجوة قائمة بينه وبين الله . وما يعبر عن هذا الشعور شيء مثل هذه الصلاة :

« يا كلى . يا بـت امح كل معصياتنا ، وامحنا كل ما هو خير بذاته »

ذلك اننا نرى الذي تقضى به أرواحنا .

ان أكبا بنا على حيازة الذة يلزمنا ان نبقى عبيداً لنفوسنا الشهوية . أما طالب اننا فيحررنا حتى نصبح في تبعية ثابتة لكل اللامتناهي . وكما يستمد الطفل من رحم أمه ، ومات حياته من طريق اتحاده بحياة الام التي هي اكثر من حياة سمعة

وأضخم مجالا ، كذلك الحال في روحنا ، فانه انما يتغذى من طريق الخير المختص . وهذا الطريق هو عبارة عن تحقيق الآصرة الكائنة بين الروح وبين الخير . بل هو المفازة التي يسلكها الروح للاتصال بعالم اللانهاية التي تحيطه وتغذيه بلبان الخلود . ومن هنا قيل

« طوبى للذين يجوعون ويظمؤون سعيا في سبيل الاستقامة ، لانهم سوف يمتاؤون »

لان الاستقامة هي غذاء الروح القدسي . وما من شيء غير هذا يمكن أن يسد جوع الانسان ونهمه ، أو يجعله يعيش عيش الخلود واللانهاية ، أو يأخذ بيده في سري تدرجاته النشوئية نحو السرمد والابد .

« انا نسجد لك يا من يزودنا بمفاتيح حياتنا ومسرانا . ونسجد لك يا من يزود ارواحنا بما فيها من خير . انا نسجد لك يا من هو الخير كل الخير »

بل نقول : « يا من من طريقه تتحد بكل شيء وتندمج في كل شيء ، في السلام والألفة ، في الخير والحب . »

إن صراخ الانسانية انما يتعالى ليصل الى أرقى تعبيراتها . اما الرغبة في سبيل التعبير عن النفس ، فهي التي تقود الانسان الى السعي وراء الثروة والقوة . ولكن الواجب عليه أن يعرف ويستكشف ان « الاستجماع » ليس هو « التحقيق » وأن الضوء الباطن هو الذي يكشف له عن حقيقة ، وليست الاشياء الخارجية . فان ذلك الضوء الباطن اذا أضاءت أشعته ، عرف الانسان في لحظة واحدة أن أخص ما يوحى به اليه ، هو وحي الله فيه . ومن ثم تعالت الصيحة في سبيل تجلي الروح وتحقيقها ، الذي هو ليس بشيء سوى تجلي الله في الروح . وان الانسان ليصبح انسانا كاملا ويحصل على أرق حالة يستطيع فيها أن يعبر عن حقيقة ، اذا حققت روحه وجودها في الذات اللامتناهية ، التي هي (آفيه) والتي تنحصر كل ماهيتها في « التعبير » لاني شيء غيره .

أن تماسه الانسان الحقيقية ترجع في الواقع الى أنه لم يتخلص من اسره ، وانه مظلم بنفسه ، مقتود في مهامه شهواته ورغباته . انه لا يستطيع أن يشعر بنفسه وقد خرج الى أبعد مما يحيط به من الاشياء المادية . إن نفسه الكبرى تكون قد عمى عليها ، والحق الكامن فيه قد غشى عليه . لهذا يجب أن لا يكون له صلاة تخرج من أعماقه سوى القول :

« أنت يا من هو روح الظواهر ، اظهر بنفسك متجاليا في روحي » .

أن هذا التطلع الى التعبير الحقيقي عن نفسه لاعرق غورا في وجدان الانسان من ظواهره ونهمه وطمعه وراء الجسديات ، وتمطشه الى الثروة والجاه الدنيوى . ان هذه الصلاة ليست بشيء يعبر عن عنصر خفي نشأ في تضاعيف الانسان وحده . انها في صميم كل الاشياء . انها عبارة عن الاجبار المتواصل الذى يخضعه له (الآفيه) أى الروح السرمدى التجلى والظهور . وإن تجلى اللامتناهى في المتناهى ، الذى هو المحرك الاول في الخلق والوجود ، لا يمكن أن يرى في السماوات المنمقة بالنجوم وكمال وضعها ، ولا في الازهار وجمال اشكالها وصررها . انه لا يرى الا في روح الانسان . لانه هناك تتجلى الارادة في الارادة ، وبعد الحرية يدها لتتلقى آخر ما تنتظر من هبة وعطاء : حيث تتحقق الحرية بالتسليم والتماء السلاح .

إذن فالنفس الانسانية هي الشيء الوحيد الذى لم يشأ بارئ الا يكون أن يتقيد بالارادة ، فتركها حرة مختارة . لذلك نجد ان الانسان في تكوينه الجسمى والعقلى ، حيث يكون ذا صلة عظيمة بالطبيعة الحاققة به ، يمتضى معترفا بجلال الله وقدرته الشاملة . غير أنه اذا رجع الى نفسه وجد لديه من حرية الاختيار ما يمكنه من انكار كل هذا . وفي هذا الحيز ، حيز النفس الحرة الاختيار ، يجب ان يلج الله ليملأ ذلك الفراغ . هنالك يستوى كضيف ، لا كملك ولا كسلطان

ويظل منتظرا حتى يدعى . إن نفس الانسان وحدها هي التي شاء الله القادر على كل شيء ان لا تضطر الى الخضوع لأوامره ونواهيه اضطرارا بل اختيارا . تركها حرة ليفرس فيها بذور الحب الانساني . ان قواته المسلحة ونواهيه الطبيعية ، انما تقف خارج ابوابها التي لا يلج منها سوى الجمال ، رسول حبه ورحمته ليستوى في أعماقها القصية

انك لا تجد من اثر اللغو في هذا العالم : عالم الاختيار والارادة . في النفس الانسانية وحدها تقع على متناقضات البهتان والاسفاف مسيطرة حاكمة بامرها . هنالك قد تتكاثف الاشياء تكاثفا يجعلنا نصيح من أعماق نفوسنا في فزع وحرقة :

« ان مثل هذه الغوغى السائدة لا يمكن ان تبسط سلطانها ، لو ان الله موجود حقا »

والحقيقة ان الله قد ظل بعيدا عن نفوسنا ، وفي صبر لا يبلغ الى حد ولا يخلص الى نهاية ، يغشى غير يحاول ان يفتح بقوة ابواب غائمت دونه . ذلك لأن النفس الانسانية يجب ان تحصل على وجودها المعنوي الحقيقي الذي هو الروح ، لا من طريق انقهر والاضطرار الآلهي ، بل من طريق الحب . وبذلك تندمج في الله من طريق الحرية والاختيار .

إن الذي اندمجت روحه في الله ، هو الذي يقف امام الناس كزهرة الانسانية اليانعة . هنالك يعثر الانسان في الحق على حقيقة ذاته . لأن هنالك يتجلى له (الآفيه) - لا في روح البشر كأكل صورة من صور الوحي الحقيقي عن وجود الله في الانسان . لأننا نرى كيف تندمج الارادة العلوية في إرادتنا ، وحبنا المحدود في الحب الباقي الدائم

لهذا نجد ان الذين يحبون الله حبا حقا في بلادنا يكاثرون من الناس باحترام وتقديس ، قد يمكن ان يعد في الغرب انتهاكا لحُرمة الدين . فأننا نرى فيهم ان ارادة الله قد نفذت واصبحت حقيقة واقعة ، وان اكبر العقبات التي كانت تحول دون تجليه وظهوره قد زالت ، وان الجذل الآلهي قد ازهر وآتى

أكله في قلب الانسان . انتا ترى من طريق هؤلاء — المحبين لله — ان ملكوت البشر قد اظله العطف القدسي واعطاه به . وان حياتهم اذ بتقد بمحب الله وتضطرم ، انما تبعث في حياة الناس الحب متجليا في اجمل صورته وابهى ألوانه . هنالك تتجمع كل حاجيات حياتنا وممراتها القريبة ، وكل تجاربها وممراتها وآلامها ، حول مظاهر ذلك الحب القدسي ، وتكون تلك القصة التمثيلية التي نشاهدها في الانسان . هنا يمس السر الأبدى تلك التوافه والترهات فيذيقها ، لاليفتها ، ولكن ليحولها الى توقيع موسيقى خلد . وهنالك تلوح لنا الأشجار والنجوم والتلال الخضراء كرموز تناجينا بيمان تمجز السمكات عن ان تعبر عنها . ويلوح لنا كدنا نرقب « الواحد الفرد » وهو يخاق امام اعيننا عالما جديدا عندما يزيج الروح الانساني بحجب النفس واستارها عن وجهه ، ويسفر بارزا ليقف وجهها لوجه امام محبة انما الدالباق ولكن ما هي هذه الحالة ؟ انها كصبح الربيع ، اذ تتنوع فيه اوجه الحياة والجمال ، في حين انه واحد كل ، غير ذي اجزاء

إن حياة الانسان عند ما تنقذ من المهاوى المسفة والشقاء ، وتحقق وحدتها مع الروح ، فهناك يصبح وجدان اللامتنهاهي شيئا طبيعيا ثابتا فيها ، كالضوء إذ ينبعث عن اللهب : وإذ ذاك تهدأ عاصفة الجلال والصراع وتمحى متناقضات الحياة . وتأتلف عناصر المعرفة والحب والعمل : واللذة والألم يندمجان في الجمال ، والتشهى والجحود يتساويان مع انابر : ويمتلئ الفراغ الواقع بين المتناهي وغير المتناهي بالحب وفيوضه الجميلة ، وتحمل كل برهة من برهات الزمان رسائلها المعنوية الى عالم السرمد والابد ، وتظهر لنا الاشياء الشوهاء التي لا صورة لها في صورة زهرة يانعة ناضرة اثريرة شهية ، ويضمننا العالم غير الحدود بين ذراعيه كأب رحيم ، وبماشينا كصديق خالص الود شفيق القلب

إن الروح وحده ، ذلك الكل الكائن في الانسان ، هو الذي يستطيع أن يتخطى كل الحدود ويمجتاز كل الحوائل ليحقق ألفته الصحيحة مع « الواحد الاعلى »

ان حياتنا، قبل أن نحقق الالفة مع الابدى اليوم ونعثر على وجودنا الكلى،
تظل عبارة عن مجموعة عادات نسميها الحياة . واذ ذاك تلوح لنا الدنيا كآلة
ميكانيكية ، تستخدم حيث تكون مفيدة وتتق حيث تكون مضرّة مخيفة،
وان يمكن أن نعرف حقيقتها كشيء هو لنا رفيق وصاحب، لا من ناحيتها الطبيعية،
ولا من ناحيتها الروحية، ولا من ناحية الجمال .



نحن وآدم

وأنا على ما كن آدم قبلنا	غفولا ولو أن الزمان تبدا
نبيع كما باع الجنان بمنطة	على غفل من لومة الغي جهلا
وما كن أبليس سوى قوة الهوى	تضل بتيه الفكر تيهان أيللا
فهل كف أهواء وهل وضحت صوى	بمومة هذا الكون بصرها الملا
ولولا تجارب الآبوة قبلنا	مضينا بأعباء الحياة سهلا
لنا فيهمو في كل أغراضنا أسى	وان كان نهج الحق في الحق مشكلا
فما كان مما ندعى من تمدن	فجماع تجريب زماننا مطولا
فلا يفتخر عصر فكل حضارة	تتاج للجهود الجدودة أولا
وما هي إلا خطوة إثر خطوة	وجهد جديد زاد جهدا محصلا
وان كان من فخر فالناس من لدن	شقيننا بما أشقى القوى المضلا

عبد اللطيف ثابت